

سِيَّاسَةُ الْمَنْصُورِ سَيْفِ الدِّينِ قَلَاوُونَ تَجَاهَ الْقُرَى الصَّلِيبِيَّةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ

دريد عبد القادر نوري
قسم التاريخ / كلية الآداب

تقديم

نتيجة للغزو الصليبي لبلاد الشام، ظهر حكام مسلمون تمكنوا — بما يتمتعون به من مقدرة وكفاءة — ان يحتلوا مركز القيادة لمنطقة الشام او لبعض مدنه وان يتزعّموا الجبهة الموحدة التي يكونونها مما يمكنهم توحيدهم من بلاد مصر والشام وبلاد الجزيرة . نظرا لضعف السلطة المركزية في بغداد من ناحية وامكانية اولئك الزعماء في اكتشاف امنيات امتهم في الوحدة والتحرير من ناحية ثانية. ولذلك فلم يكن من الغريب ان يصل إلى القيادة من سائر الممالك من يستطيع اكتشاف اهداف شعبه ويعمل على تحقيقها .

وماسيف الدين قلاوون الا واحد من اولئك الزعماء الذين تطلعوا بعمق إلى اهداف امتهم في التصدي للصليبيين وتحرير بلاد الشام من سيطرتهم وعمل على تحقيقها كما حققها من قبله نور الدين محمود زنكي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) وصلاح الدين الايوبي (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) الذين نالا بفضل تصديهم للصليبيين اعجاب الامة الاسلامية .

ولما كانت محاربة الصليبيين لا تنأى بالعمل البطولي الارتجالي وحده ، بل بالوحدة وبناء الجبهة الداخلية اولا، وباعداد العدة ثانيا . لذلك فقد شمل موضوع البحث فقرتين ، كانت الاولى في ماهية السياسة التي اتبعها قلاوون في سبيل بناء الجبهة الداخلية . على حين شملت الفقرة الثانية موقفه من الصليبيين والخطوات التي اتبعها في وقف هجماتهم على بلاد الشام وخططه العسكرية والدبلوماسية في صد ذلك الهجوم .

وقد عمدت إلى بحث هذا الموضوع نظرا لان ما وجدته في المكتبة العربية من بحوث في هذا الباب لم يف بالغرض المطلوب خاصة وان البحث في موضوع الحروب الصليبية يعتبر من المواضيع الهامة ، لان الامة العربية اليوم لا تزال تغزى من الغرب الاستعماري ، كما كانت تغزى من قبل الغرب الصليبي . ولذلك فدراسة اسباب الغزوات التي واجهتها امتنا سابقاً والاطلاع على مواقفهم

وحلولهم لها ، ربما يفيد في القاء الضوء على مشاكلنا المعاصرة ويدفع بنا إلى التعرف على العوامل التي مكنت أولئك القادة ومنهم سيف الدين قلاوون من الانتصار على أولئك الغزاة الذين كانوا يستهدفون القضاء على الوجود الاسلامي في منطقة الشام ، لان من اهم نتائج دراستنا للتاريخ ، كسب العبرة والافادة منها في تصحيح خطوات الحاضر.

ظهرت فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد الخليفة العباسي المأمون ثم استعان بهم المعتصم بشكل اكثر اذ جلب فرقاً كبيرة من التركمان لتدعيم سطرانه . ولما تأسست الدولة الاخشيدية في مصر جعل محمد بن طنج جيشه من الاتراك ومن الديلم ، ولما آلت السلطة الى الايوبيين أكثروا من شراء المماليك الترك حتى أصبحوا اعداداً كبيرة داخل مصر وكانت لهم مميزاتهم الخاصة وارسقراطيتهم المتميزة في المجتمع.

وقد انتقلت اليهم السلطة بعد وفاة نجم الدين الايوبي حيث جاءتهم ظروف موالية سيطروا من خلالها على مقاليد الحكم في مصر بعد سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م . وكان من أولئك الامراء المماليك الظاهر بيبرس (١) مؤسس دولة المماليك البحرية - والسلطان قلاوون ، موضوع البحث ، وقد تمكن أولئك المماليك من القيام بدورهم التاريخي في صد الهجوم المغولي على بلاد الشام ، كما تصدوا بحزم للصليبيين.

امتازت حروب السلطان بيبرس مع الصليبيين بعنفها وطولها كما امتازت برجحان كفته وانتصاره المستمر ، فلم تنقضى سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ - ٦٦٩هـ / ١٢٦١ - ١٢٧١م دون ان يوجه بيبرس حملة صغيرة او كبيرة ضد الصليبيين بالشام . فقد هاجم عكا واستولى على يافا

(١) الظاهر بيبرس : هو السلطان ركن الدين البندقداري الصالحي ، قفجاقى الجنس . كان رجلاً مملوكاً قوياً من ممالك نجم الدين ايوب في مصر . وقد تقلبت به الاحوال إلى ان صار سلطان الشام ومصر ما بين سنتين (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) لما كان يتمتع به من مقدرة وصلاح . انظر : تاريخ ابن الفرات : ٨١/٧ - ٨٦ .

وقيسارية وارسوف والرملة وصفد ومدينة انطاكية(٢).

وقد سار على سياسة الظاهر بيبرس السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله التركي(٣) الذي يعتبر السابع من ملوك المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام «لما قام به من فتوح واعمال جليلة لانه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا وحكموا ما وحدهم قرابة مائة عام». (٤).

وقد جاءت قلاوون هذا ظروف مواتية جعلته يحتل مركز القيادة في حكم اسرة الظاهر بيبرس ، نظرا لشجاعته ومساندته الفعلية للظاهر بيبرس ، وقد ال الامراليه فعلا سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م بعد وفاة السلطان بيبرس الذي لم يخلف من بعده الاولدا في الثامنة عشرة من عمره اسمه السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ومن دون ان يعين له اتابكا(٥) فاضطربت الاحوال السياسية في البلاد واخذ الحاكم الصبي في ملاحقة كبار الامراء والتضييق عليهم ، ومنهم قلاوون مما دفع الى الاجماع على عزلة فتقدموا في اوائل شهر ربيع الاول سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م الى قلعة الجبل التي كان فيها

(٢) انظر بخصوص حروب الظاهر بيبرس مع الصليبيين: تاريخ ابن الفرات: ٨٣/٧-٨٦.

سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر المماليك: ص ١٨٠-١٨٣، احمد مختار

العبادي قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام: ص ٢٢١-٢٢٩.

(٣) ينتمي السلطان قلاوون إلى قبيلة برج اغلي الساكنة بحوض نهر الفولكا، فهو تركي الاصل

ولمعرفة المزيد عن اصله ومولده وموطنه وبعض اعماله انظر: المقرئزي السلوك لمعرفة

دول الملوك: ج ٣/١٦٣ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات ٩٤/٧-٩٥ ابن اياس بدائع

الزهور: ١١٤/١، محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٢٠٣/٣-٢٠٤.

(٤) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك: ٢٩.

(٥) تعني كلمة (اتابك) في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار

والكلمة تتألف من لفظين هما: (انا بمعنى اب و) (بك) بمعنى امير او سيد. واول من

لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٦٥هـ. انظر:

القلعة شندي، صبح الاعشى: ١٨/٤.

مقر الحكم وحاصروها وانتهى الامر بخلع الامير الصغير نفسه عن الحكم (٦) والتعويض له عنها بحكم حصن الكرك (٧) .

وبعد خلع السلطان سعيد انتخب السلطان قلاوون اتابكا للملك سلامش بن الظاهر بيبرس الذي كان صبيا ايضا في السابعة من عمره وعلى اثرها انتقلت السلطة الفعلية للسلطان قلاوون واصبح هو الوحيد المتصرف في السلطنة (٨) ومن ثم اخذ يعمل جاهداً في تثبيت حكمه والقبض على مقاليد الامور عن طريق تعيين المواليين له في المراكز الحساسة من البلاد. ومن جهة ثانية فقد القي القبض على القادة والامراء المواليين للسلطان (ناصر الدين) والعاذل (سلامش) واودعهم السجن من دون الاعتداء عليهم والسيطرة على اموالهم بقصد تخويفهم واجبارهم على تقديم فروض الطاعة له. (٩) وهكذا نجح قلاوون بتلك السياسة السلمية في السيطرة على مقاليد الامور واوضح للجميع من الامراء والقادة ان لافائدة من بقاء ذلك الصبي ملكا عليهم . وان رأى في عزله وانتخاب قلاوون بدلا منه (١٠) وبذلك تم له ما اراد وعزل سلامش من السلطة في رجب من سنة ٦٧٨هـ وبذلك انتهى حكم اسرة الظاهر بيبرس البندقدارى وظهرت اسرة قلاوون التي كونت العمود الفقري لدولة المماليك البحرية .

ففي مجال السياسة الداخلية عمد إلى القضاء على تمردات العشائر وقطاع الطرق امثال جاموس والمحوجب للذين كانا يعيشان في ارض مصر فسادا

(٦) لمعرفة المزيد عن ظروف الدزل وسياسة الصغير انظر : ابن اياس بدائع الزهور : ١١٤/١ ، المقرئزي ، السلوك : ٦٥٤/١٣٣ .

(٧) الكرك : حصن منيع يقع إلى الجنوب الغربي من طبرية ، استولى عليه الصليبيون بعد مجيئهم إلى الشام بعد سنة ٥٩١هـ وبقي بأيديهم يشنون منه الغارات على المواقع الاسلامية المجاورة ويقطعون بواسطته الطريق التجاري بين مصر والشام إلى ان فتحه صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤هـ وانتقل بعده إلى سلطة المماليك . انظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة : ٦٩/٢٣٣-٧٣ .

(٨) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٣٢ .

(٩) انظر : ابن خلدون ، تاريخ العبر : ٨٥٠/٥٠٤ .

(١٠) ابن اياس ، بدائع الزهور : ١١٤/١ .

بالسلب مرة أخرى بالقتل حيث قبض عليهم وأمر بقتلهما (١١) وفي شوال من سنة ٦٧٨ هـ أمر بطرد كتاب الجيوش من النصارى وأمر استخدام الكتاب من المسلمين عوضاً عنهم . فقد عين مثلاً القاضي أمين الدين (شاهد صندوق النفقات) كاتباً في ديوان الجيش بدلاً من الأسعد إبراهيم النصاراني (١٢) وفي هذه الإجراءات ما يدل على رغبته في ضبط الشؤون العسكرية ومنع تسرب المعلومات العسكرية للجانب الصليبي .

ولما كان الجيش هو الدعامة الأولى التي يستطيع بها تحقيق أهدافه القاضية بضرب الصليبيين وإرجاع ما كانوا قد استولوا عليه من بلاد المسلمين في الشام لذلك أولاه قلاوون عناية كثيرة وعمد لتقويته والاكثار من شراء المماليك (١٤) الذين أخذ يعددهم أعداداً حسناً بتربيتهم والإشراف على شؤونهم الخاصة حتى قدر عدد مماليكه باثنتي عشر ألف مملوك اختار منهم ثلاثة آلاف واسكنهم أبراج القلعة وعرفوا فيما بعد باسم المماليك البرجية (١٥) .

والحقيقة إن أولئك المماليك كانوا قد قاموا بدورهم في عملية بناء الجيش المملوكي آنذاك والوقوف بوجه الخطر المغولي والصليبي الذي كان يهدد منطقة الشام نظراً لحسن تدريبهم وتربيتهم إذ كان جيشاً مدرباً على فنون القتال المختلفة التي كان يشرف عليها قلاوون بنفسه بالإضافة إلى التربية الدينية المعروفة في ذلك الوقت (١٦) .

وبعد أن وثق قلاوون من مقدرته توجه صوب توحيد القوى والطاقات وكان أول عمل بدأ به هو التخلص من منافسيه الذين كانوا يسعون للوصول إلى السلطة داخل مصر وعمل على إبعادهم إلى خارج البلاد ليتسنى له الانفراد

(١١) انظر ابن الفرات ، التاريخ : ١٩٢/٧ .

(١٢) نفس المصدر السابق : ١٩٣/٧ .

(١٤) راجع بخصوص الجيش المملوكي في عهد قلاوون السيد الباز العريني ، الممالك : ٥٣-٨٣ .

(١٥) انظر : ابن أياس ، بدائع الزهور : ١/ ١٢٠ ، حسن إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية : ٤٧ .

(١٦) انظر : حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية : ١٣

بالحكم وبالتالي التفرغ للسياسة الخارجية . وكان من اهم الامراء المشكوك في امرهم (سنقر الاشقر) فقد ابعده قلاوون إلى مدينة دمشق بعيدا عن مصر ليكون نائباً عنه فيها غير انه استغل وجوده في دمشق وعمل على الاستقلال بحكمها واخذ يستقطب الاتباع حوله حتى تمكن من مد سلطانه إلى بعض المدن والقلاع الشامية (١٧).

والحقيقة ان قلاوون كان مخطئا في سياسته السابقة فقد كان عليه ان يحاصر الامراء الذين يشك في نواياهم تجاه الدولة ويعمل على تجريدهم من مناصبهم لا أن يمنحهم امارة مدن بعيدة عن مركز الحكم .

وهكذا تحم على قلاوون مقارعة الاشقر والتخطيط للقضاء عليه واعادة حكم بلاد الشام تابعاً لمصر فبعث اليه جيشا مصرياً كبيراً فيه عدد من المماليك الاشداء بقيادة عز الدين ايبك وما ان وصل الجيش إلى مشارف غزة سنة ٦٧٨هـ حتى حدثت عدة معارك كان نتيجتها اندحار الاشقر وهروبه نحو مشارف دمشق وهناك عمل على استجماع قواته من جديد وتقدم لخوض المعركة الجديدة التي عرفت باسم (الجسورة) والتي انتهت في ١٩ صفر سنة ٦٧٩هـ بهزيمته من جديد وانضمام عدد كبير من جنده إلى الامير عز الدين ايبك الذي تعقب فلول المنهزمين ودخل دمشق (مركز حكم الاشقر) منتصراً (١٨).

ولما كان قلاوون ينوي في حروبه ضد الامراء المماليك المناوئين له اجبارهم على الدخول في الوحدة لتتوحد الطاقات لذلك فان سياسته اقتضت الوقوف امام جمهور الامه موقفاً ايجابياً، يختلف عن موقفه الذي يقفه امام الامراء الذين كانوا يقفون بوجه محاولات توحيد الامة لذلك اصدر اوامره بالعفو العام عن اهالي دمشق كما امر باكرام الاسرى واطلاق سراحهم (١٩).

والحقيقة ان سنقر الاشقر كان قوياً وله كثير من الاتباع في الشام لذلك

(١٧) ابن الفرات، التاريخ: ١٦٣/٧.

(١٨) راجع بخصوص موقف قلاوون من الاشقر وهزيمة الامير العام القوات المصرية المصادر

التالية: ابن الفرات: ٦٣/٧، ١٦٩، الذهبي، تاريخ الاسلام: ٣٢/٩.

(١٩) انظر تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق (بيروت : ١٩٤٣) : ١٧٠-١٧١ .

فان قوته لم تنته رغم ما حصل من نتائج في معركة الجسورة فقد تمكن من اعادة سلطانه على حصن صهيون وشيزر (٢٠) وبكاس (٢١) وهدد الوحدة التي كادت ان تقام بين مصر ومعظم بلاد الشام بالفشل، لذلك خطط قلاوون للقضاء عليهم نهائياً، غير ان تقدم المغول نحو الشام دفع بكلا الطرفين إلى التهادن والاتفاق على مقارعة الخطر الخارجي وقد تمكنا فعلا من الانتصار على التتار قرب مدينة حمص ومنعوا تقدمهم نحو داخل بلاد الشام ثم انتهت المعارك مع التتار وعاد الاشقر إلى حصونه من دون ان يحصل على موافقة قلاوون (٢٢).

ولما كان هدف قلاوون توحيد بلاد الشام ومصر تحت سلطانه، لذلك فانه في كل الاحوال لم يرض باستقلال الاشقر ببعض الحصون في بلاد الشام وكان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة فتقدم بقواته نحو الحصون التي كانت تابعة للاشقر واخذ يفتحها ويجبرها على الدخول في الوحدة واحدة بعد الاخرى فقد استرجع حصن بلاطنس (٢٣)، في صفر سنة ٦٨٤ هـ، كما استرجع المرقب وبرزية والشجر وبكاس في ربيع الاول من نفس السنة، ثم انتهت العلاقات السلبية مع الاشقر بفتح حصن صهيون واستسلام الاشقر في ٢٢ صفر سنة ٦٨٦ هـ واعادته إلى القاهرة مكرماً . (٢٤)

وبعد الانتهاء من فتح ما كان بيد الاشقر من المدن توجه للسيطرة على املاك اولاد السلطان بيبرس في منطقة الشام فاسترجع حصن الشوبك (٢٥) في ١٨

(٢٠) شيزر: قلعة بالشام قرب المعرة، بينهما وبين مدينة حماة يوم يجري من وسطها نهر الاردن وهي تابعة لمدينة حمص وقد افتتحها صلاحاً ابو عبيدة بن الجراح سنة ٥١٧ هـ ويقترن اسمها بين منقذ الكنانيين. (ياقوت الحموي، معجم البلدان) بيروت: (١٩٥٧): ٣٨٣-٣٨٤.

(٢١) بكاس: قلعة من نواحي حلب على شاطئ العاصي (ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤٧٤ / ١).

(٢٢) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٧ / ١٨٦-١٩٠.

(٢٣) بلاطنس: حصن منبع بسواحل الشام مقابل اللاذقية كانت تابعة لمدينة حلب : ياقوت الحموي معجم البلدان: ١ / ٤٧٨.

(٢٤) انظر: ابن الفرات: التاريخ: ٥٠/٤٩/٨، ابن اياس بدائع الزهور: ١ / ١١٧.

(٢٥) المقرئزي السلوك: ج١ ق٣ / ٦٦٦.

ذى الحجة من سنة ٦٧٨ هـ كما استرجع الصلت في نفس العام ايضاً (٢٦) وفي سنة ٦٨٠ هـ تمكن قلاوون من ضم بلاد تونس إلى حكمه وفي سنة ٦٨٥ هـ ضايق حصن الكرك (٢٧) كثيراً الذي كان بيد مسعود الظاهر بيبرس حتى تمكن من استرجاعه (٢٨) وهكذا تمت الوحدة بين مصر ومعظم بلاد الشام وثبت مركز سيف الدين قلاوون واصبح بفضلها سلطاناً لا يتنافسه احد من الامراء المسلمين القيادة البتة في كل من الشام ومصر وبلاد الجزيرة والحجاز كما اصبح اعداؤه من الصليبيين — بفضل تلك الوحدة — تحت قبضة يده محاصرين من الشمال والشرق ومن الجنوب وقد اصبحت تلك المناطق جميعاً بعد ان سادها الاستقرار بين مختلف عناصرها مادة لجيوش قلاوون وكان من نتائج تلك الوحدة ان هزم الصليبيون امام قلاوون في عدة معارك واستعيدت كل من مدينتي عكا وطرابلس كما سيتبين ذلك في الصفحات القادمة .

ولم يبق لقلاوون بعد اتمام سيطرته على معظم بلاد الشام ومصر الا كسب المسلمين في منطقة الحجاز فعمد إلى اصلاح موقفه من امرائهم والزيادة في اعطياتهم التي بلغت عشرين الف درهم سنوياً مع تقديم الكسوة السنوية للكعبة مما دفع بشريف مكة إلى الاعتراف به والخطبة باسمه والحلف له على ذلك بقسم غليظ (٢٩).

اما بلاد النوبة واليمن فان السلطان قلاوون تمكن من كسب جانب اهلها عن طريق اخذ الولاء له والموافقة على بقاء البلاد تابعة لحكامها الاصليين بعد ان اتفق الطرفان على استمرار العلاقات طيبة وسليمة (٣٠) وذلك وفقاً للمخاطر التي يتعرض لها حكمه في حالة قيام الاضطرابات هناك .

(٢٦) ابن الفرات، التاريخ: ١٦١/٧ .

(٢٧) الكرك: انظر هامش رقم (٧) صفحة رقم (٤٦) .

(٢٨) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب: ٣٩٠/٥ .

(٢٩) انظر القسم الذي حلف به شريف مكة وعلاقته بقلاوون: تاريخ ابن الفرات: ٢٤٧/٧ .

(٣٠) لمعرفة المزيد عن العلاقات بين قلاوون وامراء اليمن انظر: المقرئ: السلوك: ج١/٩٥

٧٠٢، ٦٢١ اما عن العلاقات بين قلاوون وبلاد النوبة انظر: السلوك: ج١/٣-٧٤٣-

٧٤٩ ابن الفرات: ٩٢/٨ .

بعد ان سيطر قلاوون على الاوضاع الداخلية وقضى على منافسيه تقدم لمحاربة الصليبيين بعد ان امن خطوط رجعته وكسب ثقة المسلمين به وكان اول عمل بدا به هو ارسال الوحدات العسكرية المنظمة لحفظ الساحل الشامي من غدر الهجمات الصليبية التي اخذت تتحول في تلك الظروف مستغلة الوضع الداخلي المتأزم في بلاد الشام (٣١) . لان الصليبيين لم يتمكنوا من اقامة اماراتهم والاستمرار في حكمها الا لضعف المسلمين وتفرقهم في منطقة الشام والجزيرة ومصر مع وجود تناقضات بين مصالح اولئك الامراء . وكمثال على ذلك فقد استغل جماعة الاسبتارية (٣٢) سنة ٦٧٩ هـ فرصة اغارة المغول على حلب وحاولوا الاستيلاء على حصن الاكراد (٣٣) ونكلوا باهله (٣٤) الا أن تلك الاحوال لم تدم بفضل يقظة العالم الاسلامي انذاك وما تمخضت عنه المنطقة من ظهور قادة مخلصين اكفاء تمكنوا من استغلال الظروف السياسية التي كانت تسود المنطقة وتمكنوا من الاطاحة باعمال الصليبيين العدوانية في منطقة الشام .

وبكفي ان اقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعياً استجابة للتحدي الذي اصاب المشرق الاسلامي بفعل الغزو الصليبي حتى إنه كان من المألوف

(٣١) انظر المقرئزي: السلوك ٦٨٣/٤ .

(٣٢) الاسبتارية : الكلمة تحريف ظاهر للفظ الافرنجي Hospitallers وتطلق على

احدى جمعيات الاخوان الرهبانيين التي شكلت في عهد الحروب الصليبية بالشرق وهي معروفة كذلك باسم فرسان القديس يوحنا وقد خرجت من الشام مع الصليبيين بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١م واستقرت بجزيرة رودس بعد ان كانت قد اقسمت القيام بالحرب المقدسة ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات والمعرفة المزيد عن هذه الطائفة انظر :

King (E. J.) The Knights Hospitallers P. P. I - 33

توفيق اليوزبكي تجارة مصر في العصر المماليكي هامش رقم (٦) صفحة رقم (٢٨)

هربرت فيشر تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ص ٤٤٤ .

(٣٣) حصن الاكراد: حصن منبع على جبل مقابل مدينة حمص من جهة الغرب وكان قد سكنه الاكراد ليكون طليعة بوجه الغزو الصليبي ولهذا سمي باسمهم (ياقوت الحموي معجم البلدان: ٢٦٤/٢) .

ان يصل إلى القيادة والامارة رجال من الممالك ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه السائدة وافادوا منها وما سيف الدين قلاوون الا دليل على صحة ذلك الافتراض .

وقد سار سيف الدين قلاوون على سياسة صلاح الدين الايوبي والظاهر بيبرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقي في ايديهم سنة ٥٦٨٦ / ١٢٨٩م عدا مدينة عكا التي استولى عليها من بعده ابنه السلطان خليل سنة ٥٦٩١ / ١٢٩٤م . وقد كان قوياً بحيث فتح الكثير من القلاع التي لم يتمكن صلاح الدين من فتحها لخصانتها وكثرة الامدادات الصليبية التي كانت تصلها من الغرب كمدينة طرابلس وحصن المرقب (٣٥) .

وكانت سياسة قلاوون تجاه الصليبيين في فترة الاعداد لبناء الجبهة الداخلية تتمثل بالموافقة على عقد مهادنات مؤقتة مع الصليبيين نظرا للانشغال بصدد المهجور المغولي و التفرغ للقضاء على منافسيه من الامراء المسلمين ومن جهة ثانية فان قلاوون قصد من تلك المهادنات «فصل الصليبيين بالشام عن المغول في العراق وفارس» (٣٦) .

وقد وقع اول تقرير للهدنة بين الاسبتارية بطرابلس وقلاوون وحلف عليه سنة ٦٨٠هـ - ١٢٨١م «لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشر ساعات اولها يوم السبت ثاني عشرى المحرم ... وتقررت [الهدنة ايضا] مع تملك طرابلس والشام ... لمدة عشر سنين » (٣٧) وكان جوهر الاتفاقية ينص على الشروط التالية .

(١) يقيم نواب السلطان قلاوون وصاحب طرابلس الصليبي بمدينة اللاذقية

(٣٤) انظر : The Knights Hospitallers - P . 282

(٣٥) انظر علي ابراهيم حسن، تاريخ الممالك البحرية : ٥٩٥٨ .

(٣٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية : ١١٦٦/٢ .

(٣٧) المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣، ٦٨٥/١، انظر تاريخ ابن الفرات : ٢٠٤/٧ .

(٣٨) انظر : تاريخ ابن الفرات : ٢٠٥-٢٠٦ محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون : ٢٣٣ .

للاشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة .
(٢) على الطرفين المتهادنين الا يبنيا او ينشئا قلعة او مدينة تجاور البلاد خارج
مناطقهما .

(٣) لايحوز نقض الهدنة ب وفاة احد الطرفين او بانتقال الحكم إلى غيره (٣٨)
و الحقيقة ان قلاوون كان مضطرا لعقد مثل تلك المهادنات لانه كان
واقعا تحت تأثير الخوف من الهجوم المغولي ومن احتمال استغلال الصليبيين
لتلك الظروف والهجوم على المسلمين (٣٩) كما كان منهما في القضاء على
المشاكل الداخلية فاراد ان يموه على الصليبيين بمثل تلك الاتفاقيات . ولكي يبرهن
على ظاهر صدقة ويمرر طريقته عليهم عمد إلى الموافقة على قبول مهادنات
ذات امد طويل يستغل بعض وقتها للاعداد لهم ، والهجوم عليهم بعدما يرى
منهم ايه محاولة ولو كانت غير جادة في نقض شروط الهدنة .

وفعلا بعد اربع سنوات هاجم حصن المرقب العائد للطائفة الاسبتارية سنة
١٢٨٥ هـ ١٢٨٤ م وتمكن من فتحه بعد ان امن مخاوف المغول وراى من الاسبتارية
ما يهدد قوافل التجار المسلمين (٤٠) وكان حصن المرقب هذا من أعظم الحصون
الصليبية خطورة عليه نظرا لمناعته وحصانته (٤١) ومن ناحية ثانية فان الصليبيين
ايضا قبلوا تلك المهادنة للمشاكل الداخلية التي كانوا يعانون منها ، وتخل
بعض المدن الصليبية في اوربا عنهم (٤٢) نظرا لان قلاوون حافظ على العلاقات

(٣٩) من الادلة التي تثبت ان الصليبيين كانوا يستغلون الفرص في الهجوم على المسلمين في
الاوراق الحرجة ما ذكره ابن الفرات انه سنة ٦٧٩ هـ كتب امير الشام إلى قلاوون يستأذنه
في غزو الصليبيين بالمرتب لانهم لما بلغهم قدوم المغول قويت نفوسهم وامتد طمعهم
فاذن السلطان قلاوون في ذلك . (تاريخ ابن الفرات : ١٩٥/٧) .

(٤٠) Lane Pool, A History of Egypt in the middle ages , P . 281
stevenson , The Crusader in East , P. 349

(٤١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة : ٣١٧/٧ .

(٤٢) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ١١٦٨/٢ .

الودية التي احكم اواصرها السلطان بيبرس مع امبراطور القسطنطينية كما ابرم معاهدة دفاعية بينه وبين جيمس ملك صقليا والفونسو صاحب قشتالة مما اضعف قوى الصليبيين في الشرق وجعلهم يخسرون بعض حلفائهم (٤٣) .

ويتبين من دراسة الفترة الاولى لعلاقة قلاوون بالصليبيين ان سياسته تجاههم كانت مقتصرة على غارات خاطفة ومركزة على بعض المعاقل والحصون الصليبية المهمة و الموافقة على عقد مهادنات مؤقتة لغرض التفرغ الكامل لبناء الجبهة الداخلية، كما تبين من قبل، وبعد ان حقق هدفه السابق تقدم لتصفية حسابه الكامل مع الصليبيين فاسقط طرابلس معقل تجمعهم الاول . وقبل التطرق إلى شرح تلك الخطوات اشير إلى مسألتين هامتين اولاهما : ان قلاوون ما كان له ان يحقق اهدافه لولا نجاح سياسته في تثبيت الجبهة الداخلية والسيطرة على معظم بلاد الشام والجزيرة . وثانيهما : ان قلاوون لم يتمكن من انجاح سياسته تجاه الصليبيين لولا ان خدمته بعض الظروف المواتية التي تمثلت بمساندة امراء المسلمين له واضطراب احوال الصليبيين الداخلية من جهة ثانية .

الا أنه يجب الا نبالغ كثيراً في تعظيم مساندة الامراء المسلمين له ولا في التفكك الداخلي والاضطراب الذي ساد بين الصليبيين في منطقة الشام لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين اولاهما : انه يبرر خسارة الصليبيين امام قلاوون . وثانيهما انه يقلل من اهمية تلك الانتصارات .

وكثيرا ما ذكرت بعض المصادر الغربية والعربية المقلدة لها وصفاً لا يخلو من مبالغة كبيرة في تبيان مدى الضعف الذي كانت عليه الامارات الصليبية قبل ان يغزوها قلاوون وكمثال على ذلك جاء في احدى المراجع مايلى : — « لعل الغريب في قصة الدور الاخير من ادوار المعركة الصليبية بالشام هو أن الصليبيين ظلوا حتى اللحظة الاخيرة لا يشعرون بالخطر الذي يهددهم جانب المماليك فاستمروا غارقين في منازعاتهم الداخلية ... وفي ذلك الوقت

(٤٣) انظر : توفيق اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي: ٥٧.

نشبت الحرب في ايطاليا بين بيزا وجنوا فامتدت بعد قليل إلى بلاد الشام...» (٤٤)
وفي النص السابق مبالغة واضحة في تبيان الضعف الذي كان عليه الصليبيون
في الشام ويتبين منه وكأن الصليبيين كانوا غافلين عن الحرب ضد المسلمين
فهجم عليهم قلاوون بقواته وانتصر عليهم وبذلك فإن انتصاره عليهم لم يكن
له أهمية تاريخية لأن الطرف الثاني لم يكن مستعداً للحرب .

ولو تفحصنا المصادر العربية لوجدنا ما يدل على أن الصليبيين كانوا مستعدين
للحرب وأنه كانت تصلهم امدادات قوية من الصليبيين في اوربا يقول
المقريزي : « في اول ربيع الاخر [من سنة ٦٨٣ هـ] ورد الخبر بحركة الفرنج
لاخذ الشام [دمشق] فتجهز السلطان للسفر ... » (٤٥) أي أن الصليبيين كانوا
هم البادئون في التحرك ضد المسلمين . وفي سنة ٦٨٧ هـ ١٢٨٨ نقض الصليبيون
في طرابلس الهدنة واسروا جماعة من التجار وغيرهم (٤٦) مما يدل على
شعورهم بقوتهم العسكرية وتخطيطهم للهجوم على المسلمين وفي سنة ٦٨٨ هـ
١٢٨٩ م قدمت مساعدات من الصليبيين في اوربا إلى مدينة طرابلس قبل
فتحها وهي اربع شوان (٤٧) محملة بالعدد والعدة لتقوية الحامية الصليبية
في المدينة (٤٨) كل هذه الادلة تثبت قوة الصليبيين في منطقة الشام، وامكانياتهم
العسكرية وقدرتهم على التحرك ضد المسلمين .

على اية حال فإن الهدنة بين الصليبيين في طرابلس والسلطان قلاوون
وقعت تحت تأثير مصلحة الطرفين المتبادلة غير أن بعض الامراء من الممكليك

(٤٤) انظر: عاشور، الحركة الصليبية: ١١٦٩/٢ .

(٤٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ٧٢٢/١ ج٣ .

(٤٦) نفس المصدر السابق: ٧٤٦/١ .

(٤٧) الشيني أو الشواني أو الشوانه: وهي السفن الحربية الكبيرة وتعتبر من اهم القطع العسكرية
البحرية وهي من اصل مصري وكانت تسير بمائة واربعين مجدفاً وتقدر حمولتها بمائة
وخمسين جندياً وكان يقام فيها الابراج والقلاع كما كانت ترمي منها النار على العدو .
انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية: ص ٤٨ هامش رقم (٤) ابن واصل مفرج الكروب:

١٣/٢ هامش رقم (١)

(٤٨) نفس المصدر السابق: ٦٨٦/١ .

رفضوا الصلح مع الصليبيين واعتبروا السلطان خائناً يجب قتله وبالتالي نقض الهدنة مع الصليبيين. ففي سنة ٦٨٠هـ علم السلطان ان جماعة من امرائه قد اتفقوا مع الامير سيف الدين كوندك الظاهر السعيدى على قتله « وكتبوا الفرنج بانهم لا يصالحون » (٤٩)

وقد تمكن قلاوون من السيطرة على الموقف وقتل مناوئيه بعد ان بين لعامة الناس حسن نواياه فقد تلى في الامر وتحفظ على نفسه حتى اجتمع الامراء عنده « فوبخ كوندك ومن معه وذكر لهم ما اعتمدوه من مكاتبة الفرنج فلم ينكروا وسألوا العفو فامر السلطان بهم فقبض عليهم وهم كوندك وايدغمش ... مع ثلاث وثلاثين من الامراء ... وفر عشرة امراء ومائتا فارس... » (٥٠)

وقد انتهت المؤامرة التي احيكت ضد قلاوون بالفشل وثبت مركزه ولم يتبين من دراسة المصادر التاريخية ما يدل على تأييد شعبي لاولئك الامراء وربما كان لسياسة استخدام القوة واعداد الامراء المناوئين اثر في ذلك، غير ان النص السابق يظهر منه ان الذين وقفوا ضد سياسة قلاوون كانوا كثرة من الامراء والجند يقدر عددهم بنحو ثلاثمائة رجل.

وبعد نجاح الصليبيين بطرابلس في الوصول إلى اهدافهم السابقة مع قلاوون تشجع الصليبيون في منطقة عكا (٥١) على مراسلة السلطان قلاوون

(٤٩) نفس المصدر السابق: ٦٨٦/١.

(٥٠) المقرئى السلوك: ٦٨٦/١ ج٣.

(٥١) من الجدير بالذكر ان مدينة عكا كانت من اهم معاقل الصليبيين انذاك، نظراً لمناعتها اذ كانت قد استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤م واستعادها منهم صلاح الدين الايوبي ١١٨٧م ثم سقطت بأيديهم مرة ثانية سنة ١١٩١م بعد مجي الحملة الصليبية الثالثة حيث نكل الصليبيون باهلها من المسلمين وذبحوهم خارج اسوار المدينة انظر: دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الايوبي: ص ٢٩٧-٢٩٨ وص ٣٢٨-٣٣٥، هارولد لامب، شعلة الاسلام: ص ٢١٧.

في محاولة للوصول إلى هدنة للسلام معه كالتى وقعت مع الاستبارية في طرابلس فوافق عليها قلاوون لمصاحبة بدت له معهم .

ففي خامس شهر ربيع الاول من سنة ٥٦٨٢ هـ / ٣ يونية سنة ١٢٨٣م عقدت الهدنة بين السلطان قلاوون وبين حكام الصليبيين بمملكة عكا وصيدا وبلادها وهم اودو بولشيان نائب ملك مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٢) . وقد حضر معه كل من مقدم الداوية (٥٣) والاستبارية وبعض كبار الامراء الصليبيين وأنفقوا على ان تكون الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . وقد ورد نص الاتفاقية في كتاب تاريخ الدول والملوك لابن الفرات (٥٤) . ويمكن أجمال اهم شروطها بما يلي :

١ - ان تكون جميع بلاد المسلمين وما يملكون في مأمن من غدر الصليبيين المتواجدين في الشام او الذين يأتون اليهم من اوربا وقد جاء في نص المعاهدة ما يلي :

« ان جميع ما هو للسلطان ولولده من البلاد ... وجميع العساكر والرعايا ... وجميع التجار والسفار والمتردين في البر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون آمنين . في حالتي صدورهم وورودهم على أنفسهم واموالهم واولادهم وحريمهم وبضائعهم ... وعلى جميع ما يتعلق بهم ... وانه لا ينال بلاد السلطان وولده وحصونهما ولا قلاعهما ولا بلادهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربهما ولا تركما نهما ولا أكرادهما على اختلاف الاجناس والانفار ولا على ما تحويه ايديهم من المواشي والاموال

(٥٢) King , The Knights Hospitallers in the Holy land , P.284

(٥٣) الداوية : Templers منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة فرسان المعبد . وقد أسس هذه الجمعية (Hugh de Payns) سنة ١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا والقدس ثم تحولت بعد ذلك إلى هيئة حرية ، كان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية في الشام . اما اعداد هذه الطائفة فقير معروف وقد اشترك من هذه الطائفة حوالي ٣٠٠ في معركة حطين ضد صلاح الدين ولمعرفة المزيد عنها انظر : 33 - 7 - 1 . p . Cit . K . nd . op .
(٥٤) انظر نص المعاهدة في تاريخ ابن الفرات : ٢٦٢/٧ - ٢٧٠ .

والغلال وسائر الاشياء منهم [اي من الصليبيين] بغدر ولا بسوء ولا يخشون من جہتهم امراً مكروها ولا اغارة ولا تعرضاً ولا أذية ... » . (٥٥)

٢ - وبالمقابل تعهد قلاون ان تكون جميع البلاد العكاوية الداخلة تحت نفوذ الصليبيين آمنة منه ومن ولده ومن عساكرهما « وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة الخاصة منها وما هو مناصفة مطمينة هي ورعاياها وسائر اجناس الناس فيها والقاطنين بها والمترددین اليها على اختلاف اجناسهم وأديانهم والمترددین اليها من جميع بلاد الفرنجية والتجار والسفار ... منها واليها في بر وبحر وليل ونهار ... » (٥٦) .

٣ - على الصليبيين ان لا يحدّدوا في غير عكا وعثليت وصيدا [المناطق الداخلة في الهدنة] قلعة او برجاً ولا يحدّدوا حصناً قديماً ولا مستجداً (٥٧) .

٤ - اذا هرب احد من المسلمين الى الاراضي الصليبية الداخلة في الهدنة وتنصر بارادته ترد جميع ممتلكاته الى السلطان . وان كان لا يقصد الدخول في دين النصرانية ، يرد الى السلطان قلاوون بما معه بعد ان يعطى الامان وتؤخذ له الشفاعة . وكذلك اذا حضر احد من عكا والمدن الواقعة تحت النفوذ الصليبي بقصد الدخول في دين الاسلام بارأدته يرد الى الصليبيين كل ما معه . وان كان لا يقصد الدخول في دين الاسلام ، يرد الى الحكام بعكا بشفاعة بعد ان يعطى له الامان .

(٥٥) ابن الفرات، التاريخ (بيروت: ١٩٤٢): ٢٦٣/٧-٢٦٤.

(٥٦) نفس المصدر السابق: ٢٦٤/٧-٢٦٥.

(٥٧) جاء خطأ في كتاب دولة بني قلاوون في مصر للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٤ ان على الفرنجة ان لا يحدّدوا في عكا وعثليت وصيدا حصناً او سوراً . وقد اعتمد د. سرور على مخطوط لتاريخ ابن الفرات . والصحيح ماورد اعلاه . لان النسخة المحققة لتاريخ ابن الفرات اوضحت انه يحق لكلا الطرفين التصرف بما يملكون بحرية . وان على الصليبيين ان لا يتجاوزوا حدودهم وبينون أو يحدّدوا قلعة أو حصناً فيما عدا عكا وعثليت وصيدا التي هي ممتلكاتهم الداخلة في الهدنة . انظر: تاريخ ابن الفرات: ٢٦٥/٧.

٥ - أذا وجد في صحبة أحد تجار المسلمين في عكا والبلاد العائدة للصليبيين والداخلية في الهدنة شيء من المنوعات مثل السلاح . تعاد الى صاحبها الذي اشتراه منه ويعاد اليه ثمنه ولا تصدر امواله ولا يؤدي بشيء . يعامل التجار الصليبيون بمثل ذلك في البلاد الاسلامية .

٦ - «مى اخذت اخيده من الجانبين او قتل قتيل على اي وجه كان . ردت الاخيذة بعينها ان كانت موجودة او قيمتها ان كانت مفقودة . والقتل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه ... وان لم تظهر كانت اليمين على والي المكان المدعي عليه ، وثلاث نفر يقع اختيار المدعي عليهم من تلك الولاية » . (٥٨)

٧ - ان على الصليبيين بعكا ان يحافظوا على اموال ومنازل المسلمين أذا حدث عطب في سفنهم او أذا انكسرت . وأذا لم يجدوا اصحاب تلك السفن فان عليهم ان يسلموا ما يعثرون عليه لنواب السلطان قلاوون في بلاد الشام . ويجري للصليبيين مثل ذلك في بلاد المسلمين . وكذلك الحال بالنسبة لتجار الطرفين أذا توفي احدهم في غير بلاده فان الطرف الثاني يحافظ على امواله ومنازله وتسلم بامانة الى الجهة ذات العلاقة .

٨ - أذا حاول الصليبيون الموجودون في الغرب الهجوم على بلاد المسلمين من البحر فان على الصليبيين الموجودين بعكا والبلاد الواقعة في الهدنة ان لا ينصروهم وان يخبروا السلطان قلاوون بخبرهم قبل وصولهم بمدة شهرين . أما أذا كان العدو من جهة البر كالمغول مثلاً ، فان على من يسبق اليه خبر تحركهم الى الشام ان يخبر الطرف الثاني .

٩ - على الصليبيين الذين توقع الهدنة معهم ان لا يساعدوا لصوص البحر بشيء ، وان لا يسهلوا لهم مهمة بيع المواد المسروقة . وان ظفروا باحد منهم فيجب القاء القبض عليه وكذلك الحال بالنسبة لامراء المسلمين .

(٥٨) تاريخ ابن الفرات : ٢٦٦/٧ .

١٠- لايجوز وضع عراقيل امام حركة تجار الطرفين. ويجب ان يجروا على عوايدهم المستمرة وان لا يوضع عليهم رسوم جديدة. ويكونون آمنين مطمئنين في حالة سفرهم واقامتهم بما معهم من اموال ومتاع ما عدا المواد الممنوعة .

١١- من كان من فلاحي البلاد العائدة للسلطان مسلماً كان ام نصرانياً العودة الى ارضه ومن كان من فلاحي الارض التابعة للصليبيين ان يعود الى ارضه مسلماً كان ام نصرانياً . ومن لم يرجع بعد هذا الاعلان يطرد من الجهتين بحيث لا يبقى فلاحو بلاد المسلمين في البلاد الصليبية ولا فلاحو البلاد الصليبية في الاراضي الاسلامية . ويكون رجوع الفلاح من الجهة الى الجهة الاخرى بامان .

١٢- يسمح السلطان قلاوون لكل الحجاج من النصارى بمختلف اجناسهم بزيارة كنيسة الناصرة ويحافظ عليهم وعلى اموالهم ، كما يحافظ على بلادهم من كل اعتداء من جنوده او المفسدين كذلك يحافظ الطرف الثاني على ممتلكات المسلمين في بلادهم ويمنعون اي اعتداء يقع على اراضي المسلمين .

١٣- كل طرف مسؤول عن الشروط السابقة بعينها شرطاً شرطاً وفصلاً فصلاً . وأذا اخل ببعضها ، فقد نقض الهدنة وهو مسؤول عن نقضها ومهلته في ذلك اربعون يوماً من الجهتين وينادى برجوع كل جماعة الى وطنها مطمئنة .

وقد تعهد السلطان قلاوون بالحفاظ على المعاهدة السابقة وتنفيذ نصوصها واقسم على ذلك امام الشهود بقسم طويل جاء في بعضه مايلي: « والله ... وبالله ... وحق القرآن ومن انزله ... انني افي بحفظ هذه الهدنة ... من اولها إلى اخرها ... ولا اتأول فيها ولا في شيء منها، ولا استفتي فيها طلباً لنقضها مادام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليت ... وافين باليمين ... عاملين بشروطها ... وان نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام ... حاسراً ثلاثين حجة ويلزمني صوم الدهر كله... » (٥٩).

(٥٩) نفس المصدر السابق: ٢٧٠/٧-٢٧١.

كذلك تعهد الامير الصليبي اودوبولشيان — نائب الملك شارل بالبلاد الشامية— ان يحافظ على الهدنة وان لا يخل بشروطها وقد جاء في بعض قسمه ماييلي:— « والله... وبالله... وحق المسيح... وحق الصليب... وحق الاناجيل الاربعة... وحق الست مارية ام النور... وما تلقيته من الاءاء والاقساء المعمودية، انني قد اخلصت نيتي في الوفاء للسلطان المنصور... بجميع ماتضمنته هذه الهدنة... (وان لا تعرض لكافة المسلمين ولبلادهم) باذية ولاضرر... ماداً الملك المنصور وافياً باليمين.. ومتى خالفتها او نقضتها فاكون بريئاً من ديني... واكون مخالفاً للكنيسة... » (٦٠).

ويتبين من دراسة نصوص المعاهدة السابقة والحلف عليها ان كلا الطرفين المتهادنين كانا صادقين في مسعاهما وانهما رغبا بكل جدية ان يحل في بلاد الشام فترة من السلام والاطمئنان لتنعيم المنطقة برفاهية اقتصادية وبتقدم مادي يكسب كلا الطرفين الوقت في اعداد العدة للنهوض بالواجب المحتم . طالما لم يتمكننا من الاستمرار به في الفترة التي وقعت فيها الهدنة.

وقد دل التأكيد على التجار والفلاحين في المعاهدة السابقة وورود اكثر من نص بحق التجار مايدل على اهميتهم مادياً وعسكرياً وبالتالي على رغبة كلا الطرفين بتطوير العمليات التجارية والاستفادة منها في مجال كشف احوال الطرف الثاني ومعرفة امكانياته.

كما دل النص الخامس في الاتفاقية السابقة على انه كانت تقوم بين الطرفين— لاعلى المستوى الرسمي— عملية بيع الاسلحة. ومما يدل على ذلك انه في سنة ٦٨٧هـ ورد الخبر إلى السلطان قلاوون ان الامير علم الدين سنجر الشجاعي وزير الديار المصرية باع جملة من الرماح والاسلح للصليبيين . فاعترف الامير الشجاعي بما فعل وقال: « انا بعته بالغبطة الوافرة والمصلحة الظاهرة فالغبطة انني بعتهم من الرماح والاسلح ماعتق وفسد وقل الانتفاع

(٦٠) نفس المصدر السابق: ٢٧٠/٧ - ٢٧١.

به وبعته بأضعاف قيمته والمصلحة ليعلم الفرنج انا نبيعهم السلاح هوأناً بهم واستحقاراً لامرهم وعدم مبالاة بهم» (٦١).

غير ان دفاعه لم يؤخذ به واتهم بانه يحاول اساءة سمعة السلطان قلاوون وعسكره وقيل له « ان الاعداء لا يحملون بيع السلاح لهم على ماظننت انت، وانما الذي يشيعونه بينهم وتنقله الاعداء إلى امثالهم ان يقولوا قد احتاج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية حتى باع سلاحه لاعدائه» (٦٢) لذلك امر السلطان باحتجازه ومصادرة امواله.

وعملية بيع الاسلحة هذه تدل من وجه ثان إلى ان الصليبيين كانوا فعلاً قد استغلوا فترة انعقاد الهدنة في عملية تجميع قواهم واعداد عدتهم، وانهم اضطروا إلى شراء الاسلحة المستعملة من المسلمين لان تموين الصليبيين الغربي انخفض بسبب المشاكل الدائرية في اوربا آنذاك (٦٣). او لانهم كانوا يخافون ان يفتضح امرهم اما السلطان قلاوون بان الغرب الصليبي يمدهم بالسلاح فتنتقض الهدنة لان قلاوون كان قد فصل بالمعاهدة السابقة بحكمته في الفقرة الثانية من المعاهدة السابقة بين الصليبيين المتواجدين في الشرق وبين الصليبيين الموجودين في اوربا.

على اية حال فان الهدنة بين الصليبيين والسلطان قلاوون لم تستمر بسبب المشاكل التي آثارها الصليبيون وقبل التطرق اليها ارى من الضروري الكلام على بعض المؤرخين الذين أساءوا عن غير قصد، ان يظهروا السلطان قلاوون بمظهر الرجل الخداع الماكر الناقض للعهود والمواثيق من دون برر انتهازا للفرص من دون الاستناد في ذلك إلى ادلة تاريخية. علماً بان قلاوون كان قد حلف الايمان المغالطة في الحفاظ على المعاهدة السابقة ان حافظ الصليبيون عليها .

(٦١) تاريخ ابن الفرات: ٦٣/٨.

(٦٢) نفس المصدر والمكان السابق، السلوك، ق٣، ج١/٧٤٠.

(٦٣) للاطلاع على ماذكر من ظهور مشاكل في داخل بعض المدن الاوربية في هذه الفترة واثره

على ضعف الصليبيين في منطقة الشام: انظر: عاشور، الحركة الصليبية: ١١٧٠-١١٧١.

وقد جاء في بعض تلك المراجع ما يدل على ان قلاوون كان البادئ في نقض الهدنة مع الصليبيين بعد ان تحجج عليهم وعلم فيهم ضعفاً (٦٤). وعلى الرغم من أن نكث العهود كان في تلك الفترة يعتبر جزء من الاعمال الدبلوماسية والسياسية التي يعمه بها ضد الاعداء ، غير انه من دراسة بعض النصوص القديمة تبين ان قلاوون لم يكن هو البادئ في نقضها ، بل ان الذين نقضوا الهدنة هم الصليبيون بطرابلس فقد هاجموا قافلة تجارية وقطعوا طرق المواصلات واسروا التجار المسلمين ففي سنة ١٢٨٧/٥١٢٨٩م ورد الى السلطان قلاوون في مصر كتاب من نائبه في الشام يقول فيه « ان الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنة واخذوا جماعة من التجار وغيرهم وصاروا بأيديهم عدة اسرى وكانوا لما ملك السلطان قلعة المرقب قد بعثوا اليه هدية وصالحوه على الا يتركوا عندهم اسيراً ولا يتعرضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر ... » (٦٥) . وهذا النص لا يستنتج منه مطلقاً ما يدل على ان قلاوون تحجج على الصليبيين بل الذي يبدو منه ان الصليبيين هم الذين نقضوا العهد . فهل يفسر رد الاعتبار واخذ الثار بأنه تحجج ! ؟ .

وهكذا نقض الصليبيون في طرابلس العهد فتجهز قلاوون للحرب ولبس شعار السلطنة وسار بقواته من مصر متوجهاً الى بلاد الشام في عاشر محرم سنة ١٢٨٨/٥١٢٨٩م بعد ان كاتب الامراء في الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس وفي ٢٠ من شهر صفر نزل على طرابلس وحاصرها حصاراً شديداً وامر بضرها بالمجانيق ثم توالى الزحف عليها حتى تمكن الحجازين من احداث عدة ثقب في اسوارها حتى سقطت بأيديهم ونكل بمن فيها من الصليبيين لان البلد فتح عنوة واسر عدد كبير منهم رغم ان متملك جزيرة قبرص الصليبي

(٦٤) جاء في كتاب الحركة الصليبية مانصه : « بعد ان اضطربت احوال طرابلس وانقسم اهلهما شيعاً... تحجج قلاوون بان احل طرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين ... » عاشور. ١١٧٣/٢، انظر كذلك: سرور، دولة ابن قلاوون ٢٣٧ .

(٦٥) المقرئزي، السلوك: ١٠٣ : ٧٤٦ ، وانظر: تاريخ ابن الفرات: ٨٠/٨ .

كان قد امدهم باربع سفن حربية محملة بالكثير من العدد والعدة . (٦٦)
وبعد دخول قلاوون لمدينة طرابلس منتصراً امر بهدمها لكي لا تكون
ملجئاً للصليبيين في المستقبل يحاولون العودة اليها من جديد اذا ما سنحت
لهم فرصة موالية او اذا وصلهم امداد من الصليبيين في الغرب لانها قريبة
من البحر ، ولذلك فان هدمها كان اولى بالنسبة لقلاوون فهدمها ، ثم عمر
مدينة مجاورة لها في الداخل بني فيها العديد من الحمامات والمساجد والمدارس
كما اجري المياه في دورها بقساطل واحتفل بينائها (٦٧) .

اما الصليبيون فقد امر بأخراجهم من المدينة وتوزيع ما بقي منهم على القرى
المجاورة التابعة لطرابلس والخالية من التحصينات العسكرية ليسلم من أذاهم
بعد أن أبقي بيد الاميرة لو كانت اخت الامير بوهمند السابع - الاميرة
الشرعية التي كانت سوف تحكم طرابلس - قريتين من قرى المدينة (٦٨)
كذلك نصب اميرا صليبياً على منطقة جبيل اكراماً لابيهِ المقتول حاكم مدينة
طرابلس والذي كان قد حضر الى السلطان قلاوون متشفعاً مستسلماً (٦٩) .
وعلى الرغم من ان التنازل للصليبيين ، بعد ذلك الانتصار ، لم يحدث
له مثيل في الفترة التاريخية السابقة غير انه يبدو ان السلطان قلاوون قصد من
وراءه ترضية خواطر الدول الاوربية المساندة للصليبيين . والحفاظ على مصالحه
التجارية التي كانت مرتبطة مع بعض الدول الاوربية (٧٠) . وقد كان لهذه
السياسة التي اتبعها قلاوون مع الصليبيين اثر فيما جرى من تطورات في عالم
السياسة والدبلوماسية بينه وبين بعض الممالك النصرانية .

(٦٦) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣٢١/٧، المقرئزي، السلوك: ق٣٧/١٤٧.

King: OP. cit., P288

(٦٧) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٨١/٨، السلوك لمعرفة دول الملوك: ق٣٧/١٤٧-٧٤٨.

(٦٨) Stevenson, The crusader in the East, P. 350.

(٦٩) تاريخ ابن الفرات: ٨١/٨، السلوك: ق٣٧/١٤٨.

(٧٠) انظر: توفيق اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر البحرية: ص ٥٧.

فقد اتفق ملك ارغونة وصقلية على مهادنة قلاوون ومساعدته ضد الصليبيين بالشام اذا ما اخلوا بالهدنة الجديدة وحاولوا الاعتداء على المسلمين (٧١).

ولم يكد قلاوون ينتهي من تصفية حسابه مع الصليبيين في منطقة طرابلس ويعود مطمئناً إلى مصر حتى جاءته الاخبار من الشام في شعبان سنة ٦٨٩هـ ان الصليبيين بعكا نقضوا العهد وهجموا على التجار المسلمين وقتلوه فغضب قلاوون غضباً شديداً وحلف ان ينتقم للتجار المسلمين . وقد حاول عبثاً الصليبيون تهدئة خواطره بأن ادعوا ان الذي قتل التجار المسلمين كانوا من « الفرنج الغرب وانه ليس برضاهم » (٧٢) غير ان السلطان لم يلتفت اليهم وامر بالتجهز للحرب وكتب إلى الامراء في الشام بعمل المجانيق وتجهيز العدد والعدة لحصار عكا. غير انه لم يكمل مهامه ويصل إلى الشام، لان المرض داهمه قبل مغادرته مدينة القاهرة فتوفي في ليلة ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ نوفمبر سنة ١٢٩٠م فخلفه ابنه السلطان اشرف خليل الذي تمكن من اتمام مشروع ابيه في مقاتلة الصليبيين في الشام فتوجه إلى عكا وحاصرها حصاراً شديداً وتمكن من فتحها نظراً لكفاية جيشه ومعداته العسكرية وبخاصة المجانيق الضخمة التي اشتركت في القتال والتي دكت اسوار المدينة (٧٣).

(٧١) Stevenson, op. cit, p, 351,

(٧٢) تاريخ ابن الفرات : ٩٣/٨ .

(٧٣) انظر : ابن الفرات : ٩٣/٨ ، السلوك : ٣٣١/١٣٥٣-٧٥٥ .

Stevenson, op. cit, p. 352,

قائمة المصادر والمراجع

أ - المصادر القديمة

- ١ - ابن اياس ، محمد بن احمد (ت : ٩٣ هـ) .
بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق : ١٣١١ هـ) .
- ٢ - ابن تغرى بردى ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة :
١٩٢٩م و ١٩٣٥) .
- ٣ - ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت : ٨٠٨ هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان
الاكبر المسمى تاريخ ابن خلدون (بولاق : ١٢٨٤ هـ) .
- ٤ - ابو شامة ، شهاب الدين ابو محمد بن عبد الرحمن (ت : ٦٦٥ هـ)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية
(القاهرة : ١٢٨٧ هـ) .
- ٥ - ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت : ٦٣٢ هـ)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق جمال الدين الشيال
(القاهرة : ١٩٦٤) .
- ٦ - ابن شداد ، عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي (ت : ٦٨٤ هـ)
الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة تحقيق سامي
الدهان (دمشق : ١٩٥٦) .
- ٧ - ابن كثير ، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت : ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية تحقيق د . قسطنطين زريق وزميله (بيروت :
١٩٣٩) .

- ٨ - ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت : ٨٠٧ هـ)
تاريخ ابن الفرات (ج٧ تحقيق د. قسطنطين زريق) بيروت : ١٩٤٢ .
- ٩ - ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (القاهرة : ١٩٥٧)
- ١٠ - الحنبلي ، ابن العماد عبد الحي (ت : ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب في أخبار من اذهب .
- ١١ - الذهبي ، الحافظ ابو عبد الله محمد (ت : ٧٤٨)
تأريخ دول الاسلام (القاهرة : ١٩٤٩) .
- ١٢ - الكتبي ، محمد بن شاكر
فوات الوفيات والذيل عليها عليها (بيروت : ت)
- ١٣ - المقرئ ، تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥ هـ)
أ - السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة
(القاهرة : ١٩٣٩) .
ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق :
١٢٧٠ هـ) .
- ١٤ - السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت : ٩١١ هـ) .
تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين (القاهرة : ١٣٥١ هـ) .
- ١٥ - ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله (ت : ٦٢٦ هـ)
معجم البلدان (القاهرة : ١٣٢٣ هـ) . وطبعة (بيروت :
١٩٥٧)
- ١٦ - القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (ت : ٨٢١ هـ)
صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) .

ب - المراجع الحديثة

- ١٧ - امين السيد، حكيم
قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة : ١٩٦٧).
- ١٨ - حسن : علي ابراهيم
تاريخ المماليك البحرية (القاهرة : ١٩٦٧).
- ١٩ - لامب، هارولد ،
شعلة الاسلام، ترجمة محمد عبدالله (بغداد : ١٩٦٧).
- ٢٠ - نوري، دريد عبد القادر،
سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام
والجزيرة (بغداد : ١٩٧٦).
- ٢١ - سليم، محمد زرق.
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي (القاهرة :
١٩٦٢).
- ٢٢ - سرور، محمد جمال الدين،
دولة بني قلاوون (القاهرة : د ت)
- ٢٣ - عاشور، سعيد عبد الفتاح،
الحركة الصليبية (القاهرة : ١٩٧١).
- ٢٤ - العريني، السيد الباز
المماليك (بيروت : ١٩٦٧).
- ٢٥ - رانسيما ستيفن ،
المدينة البيزنطية، ترجمة د. صالح احمد العلي بغداد :
١٩٥٦).
- ٢٦ - حسن، ابراهيم حسن،
دراسات في تاريخ المماليك البحرية (القاهرة : ١٩٤٨).

- ٢٧ - فيشر، هربرت
تاريخ اوربا في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٦٩).
- ٢٨ - اليوزبكي، توفيق
تاريخ تجارة مصر البحرية في عهد المماليك (الموصل:
١٩٧٥).

29 - Encyclopaedia of Islam ,Vol.1,2, (London. 1960) .

30- King (E.J.) :

The kinghts Hospitallers in the Holy Land ,London , 1931.

31 - Lane pool (S.) .

A-A History of of Egypt in the middle ages, London .1963.

B- Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem . London.
1898.

33- Stevenson (W.R.) :

The crusaders in the East , canbridge , 1907 .